مقـــام سيـدي عبـد الرحمـن وتأثيـــره على الثقافة الجزائرية الأصيلـة

أ/ بـن الصغيـر رحيمـة

أستـاذة مساعدة بجامعـة باتنـــة

كثيرا ما لقبت مدينة الجزائر "بالمحروسة"، حيث ارتبط مفهوم الحراسة والحماية والضمان بضريح عبد الرحمن الثعالبي، والذي يعدّ رمز الجزائر العاصمة وبركتها في المخيلة الشعبية، كما عُرفت المدينة باسمه "مدينة سيدي عبد الرحمان الثعالبي". فمنذ القدم دأب كثير من الجزائريين والعاصميين تحديدا على زيارته، هاته الزيارة تعكس طبيعة الارتباط الروحي والرمزي في المخيلة الشعبية كونها أحد أهم الرّكائز في تمرير الثقافة التقليدية وترميمها لإحداث تراكم هوياتي وتماهي للأصالة والتراث.

فلا يختلف اثنان في مكانة العلاّمة وشيخ المشايخ عبد الرحمن الثعالبي في إنتاجه العلمي الوافر في إحياء علوم الدين، رغم الإجحاف الذي طال مؤلفاته وشخصيته بعد وفاته. في المقابل شغل عقول الناس بعد وفاته بكرامه مبجّلة مُني بها لأكثر من ستة مائة سنة ظلّ خلالها سكان الجزائر وخاصة العاصمة يقصدون مقامه لمطالب متعدّدة أولها البركة.

تمكّن مقام عبد الرحمن الثعالبي من تقويّة رساميل رمزيّة ومعنوية وسّعت من أدواره داخل المجتمع، وهو ما وفّر له مسؤوليّات دنيوية ودينية أين لعب عدّة وظائف مختلفة. إلى أن أصبح مكوّنا ضروريا في توازن الأفراد والضبط الإجتماعي، بجمعه بين ما كان ينشده الناس من أمان وحاجيات العيش واستقرار نفسي واجتماعي.

وفي العموم تُعدّ ظاهرة زيارة الأضرحة مرجعا ثقافيا متميّزا تنهل منه الكثير من الدراسات الاجتماعية الأنثروبولوجية والدينية والفكرية والتاريخية، باعتبارها تدرس شقّا كبيرا من التديّن الشعبي والمخيال الإجتماعي. وفي هذا الصدد يذكر الباحث الأنتروبولوجي الجزائري مالك شبل في كتابه المشهور *المخيال العربي الإسلامي* أن المخيال العربي الإسلامي جاء نتيجة لتراكم تجارب عديدة عرفتها شعوب العالم[1].

كثيرا ما لقبت مدينة الجزائر "بالمحروسة"، حيث ارتبط مفهوم الحراسة والحماية والضمان بضريح عبد الرحمن الثعالبي، والذي يعدّ رمز الجزائر العاصمة وبركتها في المخيلة الشعبية، كما عُرفت المدينة باسمه "مدينة سيدي عبد الرحمان الثعالبي".

أولا. الامتـداد التاريخـي للظاهـرة

تُعتبر مدينة الجزائر العاصمة واحدة من المدن التي تنتشر فيها الأضرحة، حيث اختلف المؤرخون في تحديد عددها لأن أغلبها اندثر، وأشهرها ضريح عبد الرحمن الثعالبي والذي عاش في القرن 14م، أي زمن الدولة الزيانية قبل دخول العثمانيين إلى الجزائر في القرن 15م. وكان الولي عبد الرحمن الثعالبي في حياته رجل علم ودين، وبعد مماته أقام له الناس قبّة وواظبوا على زيارته والدعاء له والتبرّك به.

أثّر العثمانيون بدورهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للجزائر بربط المجتمع الجزائري بالمجتمع الشّرقي. فقد جاء العثمانيون بوسائل حضارية شرقية، من مأكل وملبس وألقاب وصنائع وتقاليد، إلخ. كما أدخلوا المذهب الحنفي، وجاءوا بطرق صوفية لم تكن معروفة، كما أثروا في فنّ العمارة كالمساجد والأضرحة... وقد أنشؤوا الأحباس التي تخدم جميع الأغراض الاجتماعية والعلمية، أهمّها وأشهرها أوقاف سبل الخير، وتزامنا مع فشل الدولة الزيانية في الصمود أمام الإسبان والبرتغال، سطع نجم الدولة العثمانية في الحوض الشرقي من البحر المتوسط، وبرز نشاط البحارة المتطوعون كالأخوين بربروس (عروج وخير الدين)، واللذان كانا يتمتّعان بشخصية إسلامية تولّي اهتماما بالتراث الإسلامي، حيث

[1] Malek Chebel, *L'imaginaire arabo-musulman*, sans ed., 1993, p.21-22.

اهتموا بضريح عبد الرحمن الثعالبي، ونصبوا أمامه مدفعا، كان يضرب به عروج كل مرة يخرج فيها لحملاته وهجوماته في عرض البحر، واعتبروا الضريح بركة وسموه "حامي الجزائر". من جهة أخرى، اهتم العثمانيون بعمارة الضريح، وجعلوا فيه مدرسة سمّوها "مدرسة الثعالبي". وبذلك تميّزت الدولة العثمانية بتوفيرها لظروف التعلم للجزائريين في الحواضر والأرياف، حيث قام القادة بإنشاء المدارس والأوقاف لخدمتها، كما احترموا العلماء والصلحاء والأشراف، وشجّعوا العلم.

توسّع الدولة العثمانية، وكذا انتشار الفساد بين حكّامها، كان بداية تقهقرها، إذ شهد نهاية القرن الثامن عشر، ومطلع القرن التاسع عشر، مرحلة حاسمة في تاريخ الجزائر الحديث، حيث وجدت نفسها طرفا في صراع أوروبي من جهة، ومطمعا لحكومة نابليون بونابرت من جهة أخرى، فسقطت عام 1830م تحت لواء الحكم الفرنسي، وذهل الاستعمار الفرنسي من واقع الجزائريين وخاصة تعليمهم، إذا يقول الجنرال "دوماس" (Daumas): "إن التعليم الابتدائي في الجزائر كان أكثر انتشارا ممّا يتصوّره الإنسان، عموما فإن اتصالاتنا بالأهالي في الأقاليم الثلاث أظهرت بأن نصف السكان من الذكور يعرفون القراءة والكتابة."[1]

وعن السياسة التي انتهجها المستعمر يقول نور الدين طوالبي:

> "عمل الاستعمار الفرنسي على نشر البدع السيّئة، كي يرسّخ الجهل ويضرب الأسس الثقافية للمجتمع المسلم، كنوع من أنواع ترسيخ الاغتراب في مجتمع يؤمن *بقوة المعنى*؛ أولت السلطات الفرنسية مخاوفها حيال الأضرحة باعتبار أماكن الدعوة للجهاد ضد الإستعمار الفرنسي، لذا تصدّت بمراقبتها وعدم إعطاء التراخيص للزوار، ممّا شل حركتها الاجتماعية والتعليمية"[2].

---

[1] الزبير يقدح، *المدارس الجزائرية في العهد الإستعماري والمقاومة الثقافية*، مقياس مشكلات التربية، السنة الرابعة، علم الاجتماع التربوي، جامعة الجزائر 2، 14-04-2009.

[2] نور الدين طوالبي، *الدين والطقوس والمتغيرات*، ترجمة وجيه أليفي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1988، ص. 120.

وجدت السمات الثقافية المتجذرة في المجتمع الجزائري طريقها إلى الظاهرة الدينية، أين تحول الدين النصي إلى دين شعبي[1]، لعبت فيه الطقوس والممارسات دور المحرك الرئيسي.

الظاهرة تندرج في الثقافة الشعبية والتي غالبا ما تسود في الجماعات القروية أين يحضر المخيال والاعتقاد بكرامة وبركة الأولياء بقوة، غير أن هذا غير وارد إذ ومن خلال قراءاتنا المتعددة للموضوع اتضح لنا أن المجتمع المتحضر كالعاصمة فيه انتشار أكثر وأوسع لهذه الممارسات من الريف، هذه الثقافة التلقائية تعكس حاجات المجتمع المتعددة وهي تداولية بين الأجيال وليست تدوينية. وما استمرارها زمانيا وانتشارها مكانيا وبقاؤها صامدة في وجه التغير إلا مؤشرا بأن التنشئة الاجتماعية هي الراعي والحافظ لها، لأنها موروث ثقافي يتعلّق بالهويات المحلية والانتماءات العائلية والمعتقدات الشعبية، وكذا بالتنشئة الاجتماعية المرتكزة على الاحتفاظ بالتراث الديني وقيم الأجداد والأعراف، فمنذ زمن بعيد تمسّك الجزائريون بالأولياء الصالحين وتقربوا منهم بغية التبرك بهم، وقدموا لهم القرابين من نذور وأعطيات عينية، من خلال الزيارات الممارسة سواء في الريف أو المدينة.

توضيح لمفهومي الزاوية والضريح

الزاوية لا تستخدم بالمفهوم الديني وحده كما هو شائع لدى بعض الطرق الصوفية، بل الزاوية كانت مؤسّسة كاملة فيها السكن والطعام والملجأ والتعليم والعبادة. وكان بعضها يُعتبر مدارسا عليا لمواصلة التعليم الذي بدأه الفتيان في الكتاب أو المدارس القرآنية. ومن الزوايا ما هو خاص بالفئات الاجتماعية مثل الأشراف والأندلس. والزوايا في الريف لعبت دورا اجتماعيا هاما في الإصلاح بين الناس وتأمين الطرق ونحو ذلك، وقد عرفنا أن أساس الزاوية هو الرباط القائم على مبدأ الجهاد، ونصرة الدين، ورد الأعداء.

---

[1] "الدين الشعبي" والممارسات العملية ذات طابع ديني ولو من حيث الشكل فقط بالنسبة إلى غالبية السكان المعاصرين من المسلمين، أنظر : حسن حنفي وآخرون، *الدين في المجتمع العربي*، مركز دراسات الوحدة العربية لعلم الاجتماع، ط. 2، 2000، ص. 397.

هناك الكثير من اللبس بين مفهوم الزاوية والضريح، إذ يربط الكثيرين الزوايا بالطرق الصوفية، وهو ما يتوافق مع تعريف محمود الزوبي للزاوية بأنها "بناء مخصص لذكر الله سبحانه، والصلاة وتلاوة القرآن الكريم، ويخصّ هذا المصطلح الصوفيين اللذين بنوا زوايا خاصة بهم لإيواء الزهاد والمتنسكين، وهناك الكثير من الزوايا في البلدان العربية "[1].

قد يُفهم من الأضرحة والقباب أنها مجرد قبور لأصحابها، وهذا أيضا سوء فهم لأن الأضرحة مثل ضريح عبد الرحمن الثعالبي مثلا كانت مؤسسات دينية واجتماعية من الحجم الكبير، فهي تضمّ قبر الولي ولكنها أيضا تضمّ مصلى، ومساكن للوكيل والموظفين، وجبانة للموتى المسلمين، وبذلك اسم الزاوية والضريح يختلطان أحيانا، لأن الزاوية تحتوي على ضريح، والضريح يلزم الزاوية لاستقبال وإيواء الزائرين.

وقد عرّف البعض المقام أو الضريح (القبة) على أنه:

> "بناية تضم قبر الولي (المرابط) وأحيانا قبور بعض أفراد أسرته أيضا، وقبر الولي يكون عادة مرتفع ومغطى بتابوت خشبي عليه أقمشة ملونة وحريرية وغيرها، ومحاط بشباك، ومعلقا عليه مصباح شرقي الصنعة، وتكون الأعلام والرايات التي ترجع إلى الطريقة التي ينتمي إليها إن كان من أصحاب الطّرق معلقة عليه، أو تتدلى منه، إضافة إلى غرفة خاصة بالوكيل الذي يسهر على الضريح، ويجمع الزيارات والتبرعات، ويصون القبّة والضريح بالزينة والإضاءة، ويوفّر حاجاتها."[2]

ثانيا : قراءة في شخصية عبد الرحمان الثعالبي

ما ينبغي قوله هو الحقيقة التي يجهلها - وللأسف الكثيرون - وهي أن عبد الرحمن الثعالبي ليس بدرويش أو مرابط عادي أو شيخ بال الثياب، يرقد في قبر

---

[1] محمود الزوبي، *معجم الصوفية*، ط1، دار الجيل، لبنان، 2004، ص. 195.

[2] أبو القاسم سعد الله، *تاريخ الجزائر السياسي*، ط1، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، ج. 5، ص. 111.

يزار بعد وفاته وفقط، وإنّما عالم في زمانه، يملك من المؤلفات ما يصعب قراءتها، بل وكان شعلة القرون الوسطى ومقصد علم وتربية، وقد أثر الشيخ الثعالبي تأثيرا كبيرا في ميدان الزهد والتصوف من ثلاث طرق: *طريق تلامذته*، فقد كان مدرّسا ناجحا وعالما واثقا من رسالته، ومحدثا ومفسرا قويا، وصاحب شخصية جذّابة ومهيمنة؛ *والثاني طريق تآليفه*، فلم يكن مجرّد زاهد بسيط أو درويش، بل ناشرا لدعوته عن طريق الكلمة المكتوبة التي تنتقل من يد إلى يد ومن جيل إلى جيل، وكان اللاحقون يتفنّنون في نسخ تآليفه وآثاره ويتواترونها، بل وينسبون إليه ما لم يقله حرصا على الانتساب إليه أو الاحتجاج به؛ أما *ثالث الطرق* فكانت زاويته التي شيّدت عند ضريحه، والتي أصبحت مقصد الزوار وملتقى الدارسين، ومجمع طلاب البركة والشفاء. "وقد ساندت السلطة العثمانية في الجزائر هذه الزاوية التي استقت شهرتها كونها في عاصمة الدولة، ولكون الثعالبي نفسه من أبناء المنطقة، وهكذا أصبحت عبارة *الثعالبيّة* تدلّ على مدرسة الزهد والورع والميل نحو العزلة والتصوف والعناية بعلوم الآخرة، والهروب من الدنيا وأوضارها."[1]

تميّز القرن الخامس عشرة للميلاد بكثرة العلماء والمثقفين، فكان عهدا ثقافيا بامتياز، شهد اضطرابا وتدهورا سياسيا شديدا، كان اسم الجزائر يطلق على مدينة ساحلية صغيرة (دزيرة في اللغة العامية)، ومفهوم القطر الجزائري لم يعرف سوى بعد دخول آل عثمان إلى الجزائر، أي في القرن السادس عشر للميلاد، فقد كانت الجزائر تعرف في القرن التاسع للميلاد بالدولة الزيانية، وكانت في صراع مع الدولة المرينية غربا والدولة الحفصية شرقا.

لقد كتب عبد الرحمن الثعالبي في الجهاد رسالة يصف فيها مدى تدهور الأوضاع السياسية في وسط البلاد، كما عرّفنا كذلك بمدى ضعف القادة السياسيين آنذاك وأهمية دور العلماء والمرابطين في القيادة العامة في الحروب ورد غارات الأجانب. ولم يشر الثعالبي في رسالته إلى أمير أو سلطان، وكان يهبّب بالعلماء أن يتحمّلوا مسؤولياتهم أمام الله والناس لصدّ اعتداءات الأجانب أو بني الأصفر كما سماهم.[2]

---

[1] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص. 84.

[2] أبو القاسم سعد الله، *تاريخ الجزائر الثقافي*، ط. 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ج. 1، ص. 82.

أثّرت هذه الأحوال في الحياة الثقافية، حيث هاجر العلماء إلى بلاد أخرى بينما انزوى البعض مفضّلا الزهد والهروب من متاعب الحياة، وخسرت الجزائر كثيرا بسبب هجرة الكثير من علمائها.

ثالثا :الحياة الثقافية والدينية الأصيلة في القصبـــة

تعدّ القصبة الجزائرية معلما تاريخيا يحتوي على أكبر تجمع عمراني يعود إلى عصور قديمة. حسب النمط المعماري القديم، كان قلب القصبة يعرف "بالجبل"، يصل خمسة أبواب محروسة ليلا ونهارا، معروفة بأزقتها الضيقة المدرجة والمتداخلة، أشهرها "زنيقة العرايس"، "زنيقة مراد نزيم بيك"، "زنيقة نفيسة" و"زنيقة سوق الجمعة"، ومساجدها وزواياها وحماماتها، وعديد العيون مثل "العين المالحة" بباب الجديد و"بئر جباح". شُيّدت في الأنحاء السفلى منها منازل و قصور رائعة في العهد العثماني، منها قصر حسن باشا، قصر مصطفى باشا، قصر دار الصوف، قصر دار القادس ،قصر الجنينة، قصر سيدي عبد الرحمان، دار عزيزة بنت السلطان، قصر دار الحمراء، قصر أحمد باي.

كان هناك سوق الجمعة عبارة عن تعاريج ضيقة، تحيط بمنازل الأهالي وقصور أعيان المدينة السابقين، وفي هذا المكان تعرض للبيع أنواع من الطيور النادرة، وكذا الحمام والعصافير المغردة كل يوم جمعة ابتداء من صلاة الفجر إلى غاية ارتفاع صوت آذان الجمعة، وكانت زنيقة سوق الجمعة من أرقى زنيقات المدينة لقربها من قصر الحاكم "الجنينة"، وكانت القصبة وجهة كبار التجار، وسادة البحار والمثقفين من السلاطين، وملجأ للعبيد، ويعبّر العمران عن "الحشمة" كالنوافذ العالية التي تطلّ على بهو الدار تدلّ على التسامح واحترام الجار، رغم اختلاف أديانهم من مسلمين ومسيح ويهود.

من الحياة الثقافية السابقة في القصبة السّهرات والجلسات النسوية والحكايات الشعبية المتوارثة عن الأجداد ، "حيث تجلس النساء في سهرات حول مائدة الشاي والفول السوداني والحلويات التقليدية للتفاؤل بلعبة البوقالات، هذه الخواطر الشعرية المأثورة اشتق اسمها من البوقال الذي يعني الإبريق في اللهجة العاصمية، حيث تقوم

إحدى النساء بوضع خاتمها فيه وتقوم بربط طرفي ثوبها ثم تنوي وكأنها تهدي البوقالة إلى شخص ما، وفي الغالب تقرأ البوقالات امرأة كبيرة في السن."[1]

من مظاهر الدور الاجتماعي للأضرحة التنفيس عن الاحتقانات الاجتماعية بلجوء الناس إلى الأضرحة والتعلق بهم بأمل قضاء حاجاتهم. تميّزت الحياة الدينية السابقة في القصبة الجزائرية بالتسامح، حيث تمتع الدخلاء بحرية المعتقد الديني، إضافة إلى سيطرتهم على المجال الصناعي والتجاري، كما " تميزت الحياة الاجتماعية بمظاهر الرفاهية وحبّ العلم، والحرص على نظافة الشوارع والمنازل وغسل الأبدان والملابس، لذلك انتشرت الحمامات والعيون العمومية بكثرة، وممارسة التطبيب التقليدي المعتمد على الأعشاب الطبية وكتابة التمائم."[2]

في العهد العثماني وعلى المستوى الرسمي، تركزت الهوية الجزائرية على الجانب الديني، حيث "ظلّ الشعور الديني حاضرا في جميع النشاطات الجماعية. وغالبا ما يأخذ طابعا خاصا. إذ تتميز هذه النشاطات بوفرة مساجدها ومدارسها والمؤسسات الملحقة بها، حيث لا تكاد المؤسسات الثقافية تنفصل عن المسجد والمدرسة والزاوية والضريح والمكتبة"[3] . وهذا ما يفسر المحافظة على بعض عناصر الهوية الثقافية في الجزائر إبان العهد العثماني، حيث كانت السياسة آنذاك تخدم الدولة العثمانية لا الهوية الجزائرية.

إن جمالية العمارة والهندسة الراقية التي كانت تتمتع بها القصبة الجزائرية تعكس نضج الحياة الثقافية آنذاك، حيث كانت البيوت مصمّمة على طابقين أو ثلاث تحوي شققاً تسكنها أسر من عائلة واحدة، ومن الملاحظ في عمارة القصبة تداخل البيوت وقربها من بعضها وعدم وجود نوافذ خارجية، لأن للبيوت نوافذ وأطلالات داخلية تُميّز العمارة الإسلامية التي تحترم حرمة الجار.

---

[1] سارة جابر، "القصبة، قصة قديمة تروي تاريخ الجزائر"، *جريدة الأخبار*، 26-06-2012، عدد 362.

[2] محمد ارزقي فراد، *المجتمع الجزائري وفعاليته في العهد العثماني*، مؤسسة دار الكتاب العربي، 2009، ص. 584.

[3] Sari D., *Les de villes précoloniales l'Algérie occidentales*, Sned, Alger, 2ème ed.1987, p 74.

كما تميّزت الحياة بقوّة التواصل الاجتماعي حيث كانت النسوة تجتمع في الأمسيات على إبريق الشاي والفول السوداني تتبادل أطراف الحديث، وفي السهرات أيضا على"البوقالات" وخاصة في المناسبات كالليالي الرمضانية والأعياد والمناسبات الاجتماعية من ختان وزفاف وغيره. ما يمكن قوله أيضا أن التنشئة داخل القصبة كانت جدّ متميزة[1]. وتعكس حشمة المرأة التي تميزت باللباس الأندلسي الأصلي، "القويط" و"الكاراكوا" الجزائري "كالحايك". ومن ميزات الحياة في الأصيلة في القصبة أن المرأة تغسل الملابس مساء في غرفة خاصة كانت تعرف في اللهجة العاصمية "ببيت الصابون"، ثم تنشرها ليلا حتى لا تشوه الخرق والملابس ولا تسيء إلى جمالية الحي كما هو الحال في حاضرنا. وامتهن الرجال حرف تقليدية متميّزة كانت تعرف "بالصنعة"، منها الطرز على الحرير، وصناعة الحلي، والفضة، والدباغة، وصناعة الشواشي، والأسرجة، والإسكافية، والحديد.

وكانت للحياة الدينية أيضا مساحة اجتماعية كبيرة، فكل المناسبات الدينية تقام في إطار جمعي مشترك. وكان لضريح "عبد الرحمن الثعالبي" حظوة كبيرة في نفوس جميع سكان القصبة، فلا تزف العروس، ولا تخرج إلا من عتبة مقامه، ويتبرّك بالمولود، وتقام الولائم والوعدات فيه.

إنّ ما حدث من حركة تغيرّ في سكان القصبة بدأً برحيل غالبية ساكنيها إلى دخول غرباء عنها، انعكس على كل شيء في الثقافة الاجتماعية التي كانت تسودها؛ فأوّل ما حدث هو سكن الدويرات والبيوت جماعيا من قبل أناس لا تمّت بينهم أي صلة، وبذلك تغيّر تفصيل المنازل داخليا وخارجيا، وذهبت معاني الحياة المشتركة، فلم يعد بهو الدار يجمع النساء لوجود الغرباء، ولم يعد هناك مطبخ

[1] تحدثنا مُخبرة في تنشئة البنات سابقا على تقاليد القصبة فتقول : "أيام زمان كانت البنت تأتي من قصبات أخرى كقصبة قسنطينة وغيرها من المدن لتنشأ على ثقافة وفنون وحرف نساء القصبة، حيث تمكثُ مدّة معينة داخلها، ومن ثم تعطى لهم شهادات، والحال بالنسبة للشباب والفتيان الذين يأتون لتعلم الحرف في الدكاكين، كالعطارة والدباغة والحياكة والطرز وغيرها".

مشترك. ومع اتّساع عدد أفراد الأسرة الواحدة، أصبحت الغرفة الواحدة تحوي من ستة إلى ثمانية أفراد. فبدأ الوافدون الجدد في فصل البيوت والبناء فوق الأسطح، وهو ماشوه شكل المنازل خارجيا[1]. لقد تحدّث ابن خلدون عن أهمية العادات الاجتماعية وكيف أن الإنسان ابن عوائده لا ابن طبيعته، حيث يقول:

"إن أهل البداوة أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر، وأصله أن الإنسان هو ابن عوائده ومألوفاته، لا ابن طبيعته و مزاجه، فالذّي ألفه في الأحوال حتى صار خلقا وملكا وعادة، إذا تنقش الجماعة عاداتها في طبائع الصغار القابلة للتشكيل عن طريق التعلم."[2]

كما أن خروج السكان الأصلين يعني ذهاب الحرف أيضا معهم، حيث تحوّلت معظم الدكاكين إلى محلاّت للأكل السريع وتصليح التلفزيونات وغيرها، ولم يعد موجود إلا القليل من الحرفين كالنقش على النحاس وصناعة الأبواب العثمانية ودباغة الجلود، واختفت الاحتفالات الطقسية الدينية التي كان تقام في مقام الثعالبي لأكثر من 40 سنة.[3]

يمكن القول أن الحراك الاجتماعي الذي حدث في قصبة الجزائر، خاصة في الفترة ما بعد الاستقلال، غيّر الكثير من مظاهر الحياة فيها؛ ما هو واضح اندثار النشاط التجاري والحرفي، وتغيّر أشكال الطقوس الممارسة داخل مقام الشيخ عبد الرحمن الثعالبي.

رابعا : توظيف الأسطورة في تنشئة الطفل على زيارة مقام الثعالبي

إن من بين مهام الأسرة الجزائرية هي تنشئة وتربية أبناءها على قيمها السّائدة لإعطائهم الهوية الخاصة بانتمائهم، سواءً كانوا في الريف أو المدينة. ومن بين ما

---

[1] إن المظهر الخارجي المشوّه للقصبة الجزائرية واضح للعيان بالعين المجردة، وكذا من خلال الصّور المرصودة من موقع علوي.

[2] جيلالي مدبولي، *الإجتماع الثقافي*، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1997، ص80.

[3] حسب المسؤول عن الضريح، فإنّه يتذكّر جيّدا طقوس خروج العروس والجلسات النسوية المقامة على شرف ختان الأطفال، والتي اختفت حسبه منذ أزيد من أربعين سنة تقريبا، أي مع الفترة الأولى للاستقلال.

تُبنى عليه الهوية المحليّة هي الارتباط بالحكايات المحكيّة في مجال الانتماء. تعمل الحكاية على تنشئة الفرد تنشئة سليمة، حيث تغرس فيه القيم والمعايير المشتركة، وهي حكايات معالجة للأفعال والسلوكات في المجتمع. ومن الحكايات ما تعلق ببركات وكرامات الأولياء الصالحين؛ "هذا النقل يتمّ عن طريق التمثل للبيئة الاجتماعية ويرتبط بالأساطير والأفكار ومنظومة التصورات."[1]

ظاهرة تبجيل الأولياء ترتبط بجانب الطقوس والممارسات بضرب من التعبير الشفوي، أين يأخذ أشكالا مختلفة. فقد كانت هذه الظاهرة ومازالت تمثّل واقعا فكريا وعاطفيا منقولا في القصص الشعبي حول كرامات الأولياء وما ينسب إليهم من أعمال خارقة، وتحتلّ هذه القصص والحكايات والأساطير مكانة متميزة في التراث القصصي. تترجم الأسطورة قواعد السّلوك عند جماعة اجتماعية أو دينية بعينها، وتنتمي بالتالي إلى العصر المقدّس الذي تكوّنت حوله هذه الجماعة[2]. يُلاحظ أن زوار ضريح عبد الرحمن الثعالبي من سكان القصبة الذين تربّوا في فضاء الضريح يرددون حكاية محمد السبع بن عودة ويؤمنون ببركته، فتراهم عندما يزورون يغتسلون من العين الموجودة هناك مرددين عبارات الشكر والتيمّن، إذا هناك علاقة متينة بين سماعهم لأسطورة محمد السبع بن عودة وتصوّرهم للبركة في الرزق والستر والصحة. وفي هذا يرى عبد الرحمن بوزيدة أن الأسطورة الجزائرية هي القصّة التي تُروى في شكل واقعي أو خيالي يصدّقه الراوي أو لا يصدقه، من أجل التأسيس لعقيدة أو عادة أو طقس أو كلّها معا "[3]. وحسبه فإن هناك أساطير ميدانية عرفها كالتالي: "هي الأساطير التي لازالت متداولة بين الناس في الوقت الحالي". [4]

---

[1] زهرة شوشان، "الهوية في الحكاية الشعبية الجزائرية"، *مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية*، جامعة الجزائر 2، ص. 703.

[2] سامية أسعد، "الأسطورة في الأدب الفرنسي المعاصر"، *مجلة الفكر*، وزارة الإعلام، الكويت، عدد 3، 1985، ص. 109.

[3] عبد الرحمان بوزيدة، *قاموس الأساطير الجزائرية*، المركز الوطني للأنثروبولوجيا الثقافية، 2000، ص 14.

[4] نفس المرجع، ص. 14.

ومن بين الأساطير المتداولة والتي يرويها عادة المخبرون "أسطورة الحذاء وأسطورة الباخرة الاسبانية"، واللتان بنيتا على معنى هيبة مقام سيدي عبد الرحمن في المخيال الشعبي للأجانب، إذ تحاكي الأسطورة الأولى العثمانيين والثانية الإسبانيين، وإليكم أسطورة الثعلبة هاته الأسطورة ذات الطابع الخرافي:

"يُقال أنه في مكان يُسمى القصبة السفلى، وبالضبط في سيدي عبد الرحمن أي في المقبرة، كانت توجد عجوز. ولما تُوفيت دفنت هي وابنها في تلك المقبرة. بعد ذلك كانت هناك ثعلبة تذهب إلى تلك المقبرة و بصورة دائمة، فلاحظ شيوخ المنطقة تردّد الثعلبة على تلك المقبرة فقرّروا مراقبتها، وهذا لاندهاشهم بذلك الأمر. فتبيّن لهم أن تلك الثعلبة كانت تذهب وتحفر القبر على العجوز وابنها وكانت ترضع الابن باستمرار، لذلك سُميت المقبرة بسيدي عبد الرحمن." [1]

هاته الرواية أقرب إلى الخرافة من حيث بنائها وفهمها اللامعقول، وهذا التّباين الحاصل في فهم معنى الأسطورة يرجعه محمد عبد الرحمن يونس إلى التباينات الاجتماعية والثقافية، والمعتقدات الدينية والمذهبية، والبنى الفلسفية والفكرية. بالإضافة إلى العادات والطقوس التي تتحكّم في حضارة ما، والتي بدورها تختلف عن عادات وطقوس المجتمع الآخر . وهي ترتبط ببنية الإنسان الذهنية والنفسية. إنها بنية ثقافية أنشأها العقل الإنساني، معتمداً على كل الحقول المرجعية التي رافقته في رحلته الحضارية.[2]

ما يمكن قوله أن قدماء سكان القصبة اعتمدوا على توظيف الأساطير التي تحاكي كرامة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في تربيّتهم لأبنائهم، أين لعبت الأسطورة دورا رمزيا و معنويا كبيرا في بناء المخيال الشعبي لديهم، "إن الأساطير و الحكايات هي المدخل المباشر لفهم معقول للعناصر غير المفهومة في

---

[1] نفس المرجع، ص. 168.

[2] محمد عبد الرحمن يونس، *الأسطورة-مصادرها وبعض المظاهر في توظيفها*، ط1، دار الألمعية، الجزائر، 2014، ص.37 .

بعض أشكال الإبداع الشعبي، و الرموز التشكيلية لدى بعض المجتمعات.[1] "وبالتالي تحليل هذه الأساطير يفسّر لنا ثقافة سكّان القصبة في تلك الفترة.

ومن بين الوسائل التي تعتمدها الأسرة في تنشئة أبناءها وربطهم بهذه المؤسسة الدينية "الضريح" ورمزية الشيخ "الولي" هي "التطبيع الاجتماعي" (socialisation)، والذي يعني "صبغ سلوك الطفل بصبغة اجتماعية"[2]؛ فيقوم الوالدين أو الجدين أو غيرهما من أفراد العائلة بتعويد الطفل منذ نشأته على زيارة الضريح والارتداد على هذه الأماكن وممارسة جميع الممارسات التي تقوم بها الجماعة المحلية. وهذه السلوكات والممارسات المكتسبة منذ الصغر تترسخ في اعتقادات ممارسيها وتظل إلى مراحل كبره وهكذا تنقل شفويا.

إذا هذا التفاعل يصبح تبادل في مرحلة النقل والتوريث، ومن ثم يصبح تواصل يضمن الحفاظ على الظاهرة. فالعلاقة التي ينسجها الفرد داخل الضريح تحمل بعدين: *الأول* يمثل الاتصال الرمزي مع الولي صاحب المقام ؛ *والثاني* في العلاقة التي يربطها مع الفاعلين الاجتماعين من خلال الطقس المشترك، فتصبح ممارسة الشعائر في مراسم زيارة القبب بمثابة باعث ومحي للضمير الجماعي المشترك، ويذوب الفرد مع الجماعة، وبالتالي تحضر الهوية الواحدة للجماعة الاجتماعية، ويتطبع الفرد بطباع مجموعة انتماءه الاجتماعي. وفي هذا يرى "ديديه أنزيو" أن الانتماء الاجتماعي هو "انتماء الفرد إلى مجموعة ما و تبنيه لكل ما تحمله من خصوصيات تميّزها عن غيرها كالاعتقاد والقيم والمعايير والتصورات" [3] . إنّ التمثلات الرمزية الموجودة في ضريح الثعالبي تحمل قيم المجتمع وثقافته، دارية لحاجات الإنسان الداخلية، لأن إدراكه لحاجاته يجعله يواصل طلبها. كما أنّها تبرز ثنائية متضاربة وهي الحداثة والتقاليد في مجتمع مدني، وفي هذا يرى نور الدين

---

[1] Lévi-Strauss Claude : **Structural anthropology**, Basic Books, Inc, New York, 1963.

[2] يمينة قوجيل، *التنشئة الاجتماعية من خلال نشاط اللعب التربوي*، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في نظرية ومنهجية التربية البدنية والرياضية، سيدي عبد الله، الجزائر، 2008-2009، ص. 29.

[3] زهرة شوشان، مرجع سابق، ص. 705 .

طوالبي أن "الممارسة الطقسية في المدينة ناتجة عن انعكاس الثقافة التقليدية، والتفاخر الطقسي يعرض مبدأها الأكثر دلالة لأنه يرتكز على إبراز التقاليد أمام الحداثة."[1]

تعتمد الأسرة في المجتمعات المنغلقة والضيّقة في تربية أبنائها وتنشئتهم على الامتدادية والاتصال داخل الجماعة الضيّقة القبيلة أو القرية، حيث تضمن هذه الامتدادية ترسيخ العادات والتقاليد وتشريب القيم والمعايير، ليصبح الفرد تقليديا حيث من الصّعب فصله عن مجموعته المحليّة. وتعتمد الأسرة التقليدية في ذالك على أساليب تقليدية، كالشدّة والقسوة عند الاتصال والرجوع أو الاتخاذ من الماضي، وجيل الآباء و يل المؤطرين مرجعية في التنشئة.[2]

خامسا. الطقوسية في مقام عبد الرحمن الثعالبـــي

1. الطقوس الدينية الشعائرية

أ. طقس المولد النبوي الشريف في ضريح الثعالبي

جرى التقليد العاصمي في ضريح الثعالبي بالاحتفال يوم المولد النبوي الشريف، بوضع رداء جديد فوق قبّة الولي - يُدعى هذا الرداء في عرف العامة بـ"الشليل" أو الكسوة - في الصباح بحضور شخصيات دينية والتلفزيون الوطني وشخصيات قصباجية معروفة في الوسط الثقافي والفني. حيث يحرص المسؤول عن الضريح على عدم دخول العامة من الناس في هذه الأوقات. من ثم وفي حوالي الحادي عشر صباحا تنتهي المراسيم، فتأتي جموع الزوار في أغلبهم النّساء، ويسلكون المدخل الضيّق الذي يؤدي إلى الضريح، ومن غير الممكن الدّخول لكثرة الزوار من جهة، ومن جهة أخرى لوجود المنشدين مهلّلين و مادحين الرسول ﷺ في أناشيد دينية. من بين ما قيل من مديح: "يا رسول الله، يا شفيع الله، اشفع لينا ! سيدي عبد الرحمن هو لي لينا..." تتعالى بذلك زغاريد النساء في هذا اليوم.

---

[1] نور الدين طوالبي، *مرجع سابق*، ص. 11-12 .

[2] رشيد حمدوش، *مسألة الرباط الإجتماعي*، دار هومة، الجزائر، 2009، ص. 291 .

معظم الحاضرين لهذا الطقس يحظرون معهم أكلات مميزة، مثل الطمينة والمقروط والطعام والرشة، إذ يتخيّل الداخل إلى الضريح أنه في عرس. كما يحضرون الحنة والشموع، وعلى حدّ تعبير البعض أنهم يعقدون النية والعهد مع الولي كل ليلة مولد نبوي شريف. كما تُعتبر الصدقة أحد أهم وسائل الوساطة في عرفهم، فهي مربوطة بنيل بركة الولي وكذا شفاعة الرسول.

ب. طقس السابع والعشرين من رمضان

يُعدّ السابع والعشرين رمضان من كل سنة هجرية يوما خاصّا لدى زوار ضريح الثعالبي، حيث يُعتبر اليوم الوحيد الذي لا يُغلق فيه باب الضريح حتى في الليل تيمننا بهذه الليلة المباركة. يأتي الزوار لقضاء هذه الليلة في ضريح الثعالبي من كل مكان من العاصمة، وحتى من خارج العاصمة. رجال ونساء مع أبنائهم وأحفادهم للتضرّع والتيمن بالولي من أجل أخذ بركته وشفاعته. كما يدعون له بالرحمة إيمانا منهم أنه في ليلة القدر تزيد بركة الولي باعتبارها ليلة تنزل فيها الملائكة بأمر الله، فهي ليلة هامّة يشفع فيها المقرّبون من الله والأولياء و الصالحون، كما يكثر السائلون من الفقراء والمحتاجين عند المدخل الرئيسي على طول شارع بن شنب لجمع هبات المتصدقين بسخاء في هذا اليوم، وبالعودة إلى حياة الأولياء الصالحين، يُذكر أنهم كانوا يتصدقون على الفقراء في المواسم الدينية، وخاصة في السابع والعشرين من رمضان.

2. الممارسات والتقاليد التي اختفت في المقـــام

تأثّرت التركيبة الاجتماعية لمجتمع مدينة الجزائر العاصمة خاصة في العهد الأول للاستقلال بالحراك الجغرافي، وهو ما أبرز فئات اجتماعية جديدة عُرفت بمصطلح "النازحين الاجتماعيين". ولعل هذا أبرز العوامل التي أدّت لاحقاً إلى اختفاء أعرق الطقوس الممارسة في مقام عبد الرحمن الثعالبي، و هو ما يؤكد عليه عبد العزيز راسمال فيقول: "في الأوساط المدروسة، السمات المختلفة للأولياء، والأدوار التي يؤدّونها تختلف باختلاف الأشخاص والحاجات المطلوبة، كما

أنّ التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لها أثر على التصوّرات والتمثّلات الاجتماعية"[1]. ومن هنا نقدّم جملة من الطقوس التي اختفت ممارستها في المقام.

ب. الحضرات

طقس روحي غنائي يلبس فيه الأعيان الشاش، ويرتدي الجالسون "الشاشية الحمراء"؛ وهي تعبر عن قوانين اجتماعية مغايرة في وقت كان فيه ترك الرأس عاريا عارا لا يغتفر.[2]

تكون الحضرة عادة في الحفلات الدينية، مثل عاشوراء والمولد النبوي الشريف، حيث كانت في السابق تختار أجمل الأصوات المعروفة في المدينة وضواحيها لتشكل بها مجموعة صوتية من القصّادين الملمين بفنون المدح والذكر، والمختصين في ترتيل وتجويد القرآن الكريم. وكان يشرف عليها "شيخ الحضرة"، حيث كانت تُقام كل أسبوع وتتواصل على مدى شهرين كاملين عند حلول "الموسم"، كما كان يُقال عن ذكرى المولد النبوي الشريف في اللهجة العاصمية. فتنطلق الحضرة من ضريح الثعالبي خلال أوّل وثالث وسابع يوم للمولد النبوي، قبل أن تنتقل إلى بقيّة مساجد وجوامع مدينة الجزائر الواحد تلو الآخر. من بين شيوخ الحضرة سيد علي الأكحل (1930) و هو أخ محي الدين الأكحل، وآخر من عرفته الحضرة في ضريح الثعالبي الفنان محمد الفخارجي.

ج. زفة العروس من المقـــام

هذه العادة اختفت من التقاليد العاصمية منذ حوالي أربعين سنة حسب ما قاله لنا المسؤول عن المقام. حيث كانت العروس العاصمية تزف إلى بيت الزوجية من مقام الثعالبي، وتخرج إلى موكب العرس بعد أن تأخذ بركة الشيخ الثعالبي رفقة قريباتها ورفيقاتها وجارتها بالأهازيج والغناء.[3]

---

[1] عبد العزيز راسمال، *الزوايا والأصالة في الجزائر*، الجزائر، منشورات ثالة، 2011، ج. 2، ص. 267 .

[2] فوزي سعد الله، "سيدي عبد الرحمان الثعالبي"، *جريدة الشعب*، عدد 2398، 30-03-2010.

[3] مقابلة مع المسؤول المقدم في ضريح الثعالبي، 07-11-2012، الساعة 10.30- 11.30

د. الختان في ليلة 27 رمضان

هاته العادة موجودة أيضا في التقاليد العاصمية منذ حوالي أربعين سنة، حيث كانت تُقام حفلة ختان جماعي للأطفال في ليلة السابع والعشرين رمضان من كل سنة هجرية.

هـ. الجلسات النسوية أوما يعرف بالقعدات

اختفت القعدات العاصمية التي كانت تحضرها نساء القصبة، "القصباجيات"، في ضريح الثعالبي بالمناسبات ومنها:

- **قعدة حنة العروس:** حيث تأتي العروس من الحمام ليلة قبل العرس، تخضب يدها بالحنة داخل الضريح بحضور رفيقاتها مع الزغاريد والأهازيج.
- **قعدة أول خرجة للعروس:** من بيتها الزوجي بعد أسبوع من زواجها حيث تحضر إلى ضريح الثعالبي ومعها المشروبات "الشاربات" والكعك، وتقدمها للقريبات والجارات وأهل الزوج.
- **قعدة المزيود :** بعد أسبوعين من الولادة تحضر المرأة صغيرها تزور به الضريح مع جدّته، وتدعوا قريباتها على جلسة داخل الضريح، وتتيمّن ببركة الشيخ الثعالبي.
- **قعدة الختان:** عندما يشفى الطفل تقريبا أسبوعين تقيم له والدته أو جدّته جلسة نسوية داخل ضريح الثعالبي تيمّنا به.

و. تقليد وضع الأشياء الثمينة:

وذلك تحت سترة القبر مثل قطع الفضة والذهب والأموال، عادة تكون من نصيب من يأتي بعدهم. بالمقابل يعدّ هذا التقليد من السلوكيات المشينة لدى المشعوذات اللاتي تحاولن المساس بحرمة الولي الميت بأخذ تربته أو كسوته، ممّا أدى بالقائمين على الضريح إلى حياكة الكساء مع التابوت لغلق المنافذ على الفضوليين. وفي هذا الصدد يرى الأستاذ والخبير الدولي المختص في التصوف محمد بن بريكة في إطار تناوله للممارسات التي يقوم بها زوار الأضرحة: "التصرفات التي يقوم بها الزوار داخل الضريح من عوارض الجهل والإخلال بحرمة

وآداب زيارة القبور، و لا تدلّ على مظاهر 'الشرك بالله' كما تفسرّه الوهّابية العلمية". كما يرى أن لضريح الثعالبي مكانة كبيرة في نفوس الجزائريين، وهو أحد المعالم الإسلامية والحضارية في الجزائر، وبوابة للأحياء الكبرى بالعاصمة؛ أما الطقوس داخله كالرقية، ورمي الأشياء الثمينة تحت سترة القبر، الطواف حول القبر، الاختلاط بين النساء والرجال، وضع الحنة، كلّها منافية للدين الإسلامي، مؤكّدا على ضرورة الإشراف على تسيير المقام والحفاظ على حرمته. [1]

* * *

لزوار مقام عبد الرحمن الثعالبي مطالب اجتماعية مادية وحاجات نفسية روحية، تختلف وفق معايير اختلاف كل من الجنس، والسن، والحالة الاجتماعية، والمستوى التعليمي والمعيشي. كما لعب الحراك السّكاني من وإلى قصبة الجزائر، وكذا التّشئة الاجتماعية للأفراد على التقاليد والأساطير التي تحاكي كرامة الولي عبد الرحمن الثعالبي دورا هاما في بقاء و تجدّد هذه الممارسة والشعيرة وفي ترسيخ هذا الارتباط. ومنه فإن لظاهرة زيارة الأضرحة وظائف ودلالات متعدّدة، منها ما هو ديني واجتماعي وثقافي ما ارتبط بالتراث الشعبي. هذه الممارسة الدينية الشعبية كانت ولازالت محفوظة رغم من تغير الاجتماعي ورغم تجدّد حاجات ومتطلّبات الأفراد، لأنّ التصوّرات لا تقبل التغيّر، واستمرارها وثيق الصّلة بالمعتقد الديني والواقع الاجتماعي والثقافي للمجتمع الجزائري. فرغم التغيّر والحراك الاجتماعي والتكنولوجي والثقافي، إلا أن رمزية مقام سيدي عبد الرحمن راسخة في المخيال الديني الشعبي. والحمد لله أن بدأ الاهتمام العلمي بالتصوف وعلمائه، ولقي الدعم من صنّاع القرار في الجزائر لإحياء أسماء قاربت أن تُنسى، على غرار الطاهر آيت علجات. إذ لا بد من بناء سوسيولوجية المجتمع الجزائري انطلاقا من دارسة الظواهر الاثنية والتقاليد والعبادات والعادات القبلية والفلكلور دارسة جدية.

[1] مقابلة مع محمد بن بريكة، جامعة الجزائر2، الجزائر، 15-11-2012، الساعة 13.00-13.30

يمكن القول أن زيارة مقام الثعالبي تؤدّي أهداف ثقافية ومجتمعية أصيلة، بوظائف غير ظاهرة تتجاوز التبرك إلى تعبئة الذهن الجمعي ورمزية الذاكرة والترميم الثقافي، وتضمن للأفراد التّوازن النفسي والتساند الاجتماعي، كما تفرض استمرارها لأنّها في الأساس تتغذى على العرق والدين. هذه التركيبة المزدوجة تخلق حالة التديّن الشعبي والمقدس الشعبي.